من مفكرات

المسيو غورو مدير الامن العام الاسبق بباريس

كانت فتاة جميلة تدعى م .. تقيم في شارع « كاري » من حي « سان دينيس » في مساء يوم بينما كنت منفرداً في المركز جاء اليه بواب الدار التي تسكنها الفتاة واخبرني ان الفتاة م .. مفقودة منذ اسبوع وان شيئاً ذا رائحة كريهة يترشح من داخل باب الجناح الذي تقيم فيه .

وهنا لا اكتمك ايها القارىء ما اعتراني من الانزعاج عندما افضى اليّ البواب بهذا الخبر ، لأن ذكر الموتى فضلاً عن رؤيتهم مما يستطير له فؤادي جزعاً .

ولم تكن الليالي التي قضيتها في ميادين الحرب ولا السياحات العديدة التي قمت بها في انحاء الأرض استطيع ان تزيل هذه النفرة الشديدة التي رافقتني منذ نعومة الأظفار . وكذلك لم تكن الأعوام العديدة التي قضيتها في خدمة الشرطة لتنتزع من نفسي هذه العادة الغريبة .

واحسب ايها القارىء انك لا تستطيع ان تتصور مقدار الجزع الذي كان يستولي عليّ عندما كنت ادعى الى التحقيق في قتل او انتحار . ولكنني استطعت اخيراً بقوة الارادة ان اتغلب على عواطفي .

خرجت مع البواب الى شارع كاري حيث تقيم الفتاة وانا اسائل نفسي اثناء الطريق هل السبب يا ترى في فقد الفتاة انتحار او جنى عليها جان اثيم ؟

كان ذلك اليوم الذي وقع فيه هذا الحادث من ايام حزيران وكان شديد الحر ، وانا ما كدنا نقترب من الباب الخارجي و يشرع البواب في فتحه حتى هجمت

علينا ، وعدا عن كون غرفة المنامة مقفلة ، رائحة كريهة جداً كأنها خارجة من رمس .

فالتفت البواب الي قائلاً بهزء : تفضل يا حضرة الكاتب !

وغني عن البيان ان موظف الشرطة يجب ان يكون في مثل هذا الموقف في مقدمة الناس كما يكون الضابط في مقدمة الجند في ساحة الحرب . فتقدمت وامسكت بحلقة الباب وهززته فانفتح الباب وانبعثت من داخل الغرفة رائحة قتالة كادت تقطع انفاسنا وتقضي علينا .

ومع ذلك لم يسعني الا اقتحام هذه المهلكة ، فدخلت الغرفة وانا لا اتبين مواضع قدمي من شدة الظلام ، فأخذت افتش عن نافذة في الغرفة طلباً للهواء والنور فما اهتديت وكدت اقع الى الارض لقلة الهواء ولولا ان تداركتني الصدف وعثرت بسرير هناك عليه جثتان حيث ارتميت الى نافذة فكسرت الزجاج واستردبت قواي بما دخل من الهواء

على ان حاجب المركز عندما رآني سقطت الى الارض اسرع وامسك بيدي واخرجني الى الشرفة وبعد ان استعدت شيئاً من قواي الضائعة عدت الى الغرفة بعد ان فتحت نوافذها طبعاً . واليك فيما يلي خلاصة هذه الكارثة :

ان الآنسة م . . فقدت آثارها منذ خمسة عشر يوماً وليس ثمانية كما افاد البواب ، ولا يمكنني الجزم بأن هذه الفتاة كانت جميلة كما قيل لانني لم انظر منها سوى وجه مسود تغطيه الديدان ولكن هذه الآنسة كما يقولون كانت آية في الجمال بل بطلة من بطلات روايات الغرام .

كانت هذه الفتاة قد علقت شاباً وعلقها ولما علم اهل الشاب بذلك خطروا عليه الاجتماع بها وابوا عليه الاباء كله ان يبادلها الحب ، فأسقط بيد الحبيبين اللذين اصبحا يعيشان بدون امل ورأيا ان لا نجاة لهما من هذه الحياة الكئيبة الا بالموت

وهكـذا اوقدا ناراً من الفحم في الغرفة واقفلا النوافذ عليهما ، وعلى هذه الصورة الفجيعة انتهت الآم هذين التاعسين .

* * *

لم يمض زمن طويل على هذا الحادث حتى عهد الي التحقيق في حادثة جنائية اخرى كانت مما افادني تجربة في الحياة وجعلني اختبر ما اكتسبته في خدمة الشرطة من المعلومات .

في صباح يوم ، جاء الى القسم عامل يقيم في شارع « بارادي » وقدم شكوى فظيعة ضد مخدومه وهو من اكبر اصحاب المعامل في ذلك الحي المشهور بالشهامة والمروءة ولم يكن في اخلاقه من مغمز يؤخذ عليه او عيب يعاب به .

ادعى العامل على ذلك الرجل انه اخذ ابنته (اي ابنة العامل) التي لم تكن تبلغ الخامسة من عمرها الى بيته وافتض بكارتها دون ان يراعي لاحد حرمة او يخشى عاراً او اثماً .

فدعى المفوض المسيو كوللاس بالابنة ورغماً عن صغر سنها كانت تجيب على ما نلقيه عليها من الاسئلة اجوبة الكبار المسنين ، وقد وصفت للمسيو كوللاس غرفة الرجل وصفاً دقيقاً وبينت له مواضع الاشياء كلها وما هنالك على الجدران من صور وما على الموقدة من اشياء .

فاكبرنا هذا الامر اي اكبار وقر رأينا على ان نتولى العمل في هذه المسألة ونترك ما عداها .

وقد كان الوالد استحصل على تقرير من احد الاطباء يؤيد مدعاه فلم يبق لدينا شبهة في ان الفتاة المسكينة سقطت ضحية اعتداء غير شريف لا يزول اثره حتى الممات .

ولولا ان الرجل المتهم بهذه الجريمة ذو شخصية بارزة ومكانة معروفة سامية

الهيئة الاجتماعية لما تريث المسيو كوللاس خطة في القاء القبض على المتهم .

على انه استحصل امراً من الحكومة لاجراء تحقيق سري في حق المسيو ق . . المتهم ، فلم يتصل به ما يؤخذ على هذا الرجل او يعاب به سيرته مطلقاً لانه لم ترفع عليه طول حياته قضية في امر من الامور ولم يسمع عنه ما يشين بل المشهور عنه انه ذو اخلاق عالية ملائكية ومعاملاته وتصرفاته مع عماله تصرف الاب في شؤون اولاده يعطف عليهم كل العطف ويحنو عليهم حنو الامهات على الاطفال

والحاصل انه كان رجل يعيش كاشرف انسان في هذه المدينة ولم يكن يخرج يوماً دون استصحاب زوجه وابنته فهل دخل هذا الرجل خلل في عقله يا ترى حتى ارتكب هذا الجرم الفظيع ؟

ومع ما ظهر من التصاق التهمة بالمسيو ق . . عزم المسيو كوللاس بعد اعمال الروية والفكر ان لا يتسرع في القاء القبض عليه وارسل اليه شرطياً سرياً يطلب اليه الحضور الى القسم .

ولما كان بين المسيو كوللاس وبين المسيو ق . . . شيء من المعرفة قدم هذا الى القسم ووجهه طافح بالبشر وما كادت تقع عيناه على المسيو كوللاس حتى بسط له يده مسلماً دون كلفة شأن الصديق مع صديقه .

وبعد ان تبادل الاثنان بعض كلمات المجاملة اطلعه المسيو كوللاس متلطفاً على التهمة الموجهة اليه .

فبهت الرجل واجاب وقد علت وجهه صفرة الموت : ان هذا غير ممكن ! . . كلا لا يمكن ان اتهم بامر كهذا !

فقال له المسيو كوللاس : هناك ادلة ثلاثة فدعني اقرأها عليك .

فاجاب صاحب المعمل : اجل ان كلام الصغيرة يفيد ذلك ، وهذه البنت الوديعة كثيراً ما جاءت المعمل تنشد اباها في فرصة المساء وكثيراً ما تفحها

بأسباب الهوى ولكن مع ما جاء في اقوالها اقسم بالله انها لم تدخل داري مطلقاً

فاجابه المفوض : أليس ما جاء في اقوالها من وصف غرفتك صحيحاً ؟

اجاب وقد انهكه اليأس لعمري انه صحيح ، ولكني اقسم برأس اولادي اني لم احضرها الى داري مطلقاً .

قال هذه الكلمات بصوت خالطت انغامه الحزن وقد هاله ما عزي اليه من التهم الدنيئة .

وبعد ذلك سمح للمسيو ق ... بالعودة الى منزله الا انه جعل تحت المراقبة السرية احتياطاً .

وجاء في اليوم الثاني الى القسم لتجري مواجهته مع الصغيرة وقد كانت لهذه المواجهة تأثيراً اليماً في نفسه اذ اعادت الصغيرة امامه اقوالها السابقة حرفياً دون اكتراث .

فأسقط في يد المسيو ق ... ولم يسعه في اول الامر ان يبنت بنت شفة ثم قال معترضاً : ليس هذا الامر من شيمي ولست مجرماً ، وان هذه الصغيرة لم تأت الى مكتبي قط ولا مع ابيها ايضاً .

وفي هذه المرة تردد المسيو كوالامس كثيراً في اطلاق سراحه لان ارتكابه الجرم يكاد يكون محققاً .

وعلى اثر ذلك دعي والد البنت الى غرفة اخرى حيث كان ابعاده عن ابنته لئلا تخشاه فيما اذا ارادت الرجوع عن اقوالها السابقة وانفرد بالمسيو ق ... المتهم الذي يخاطب نفسه بنفسه قائلاً : اني اكاد اجن . وليس لي خلاص الا بالانتحار .

فسأله بلطف : المجرم انت ؟

فاعتدل في مقعده وقال : انا ؟ اقسم لك بكل عزيز ومقدس لدي ، اقسم

الشيء الذي الحيوانات، زوجي العزيزة، والدليل المعوز الذي تخصص الآن اني بريء من هذه التهمة .

فأثرت فيَّ هذه الكلمات كثيراً لأني كنت رفيق المواطنين حتى آخر ايامي في خدمة الشرطة، ولكن ما العمل والتهمة تكاد تكون ثابتة ؟ ولكنني قلت له : مادمت بريئاً فلماذا الخوف ؟ ولماذا تتحير ؟ فعليك ان تثبت براءتك . ولا بد ان يظهر الحق ان آجلاً او عاجلاً . والآن نعود الى منزلك متروكاً دعوة المفوض اليك —

ولما خلوت بعد ذلك بالمسيو كولاس قلت له : ان الرجل بريء ما في ذلك شك فقال قد يكون بريئاً، وظاهره يدل على صحة اقواله . ولكن اين الاثبات ذلك ؟ وماذا نقول في التهمة الموجهة اليه ؟

بيد اننا شرعنا في التحقيق عن احوال والد الفتاة رجاء ان نجد ما ينير لنا سبيل التحقيق فظهر لنا عنه انه معروف بين رفاقه بالمروءة والطيبة ودمث الاخلاق ولكنه مع فقره قنوع ولا يختلف الى الحانات ولا نظير غيره زوجة كالسكارى يرتكب ما يخل بالشرف .

على انني عزمت اخيراً ان اتولى التحقيق وطلبت الى المسيو كولاس ان يسمح لي باستجواب والد الفتاة كما اريد .

فسمح لي المسيو كولاس بذلك وقال انه لا يزال في غرفة الموظفين المكلفين حتى الآن فاستجوبه .

فاستحضرت الفاعل في الحال وخاطبته بعد قليل الاً : كم مرة دخلت الى غرفة مولاتك ؟

فأجاب مرتبكاً : لا يا سيدي انا لم ادخلها سوى مرة واحدة احضرت اليها حقيبة كان نسيها في العربة .

ثم أخذ يصب اقذع اللعنات على رأس المسيو ق . . ومن ثم امرت الحاجب ان يحضر لي قليلاً من الحلوى واستحضرت البنت الى غرفة اخرى من حيث لا يراها ابوها .

وبينما كانت تمتص قطعة من الحلوى التي اعطيتها اياها وتنظر الي ضاحكة قلت لها بلطف : الا تعلمين « ياشاطرة » بأنك قد عملت عملاً غير حسن سيعاقبك الله عليه ويحرقك بنار جهنم ؟ انك لم تذهبي الى غرفة المسيو ق . . . مطلقاً .

فأجابت الصغيرة : ان الله لا يعاقبني لأنني قد اطعت ابي .

فقلت لها الحق بيدك ، فالواجب على كل انسان ان يطيع والديه . انك ما شاء الله قوية الذاكرة وقد استظهرت وحفظت جميع ما لقنك اياه والدك جيداً

فاجابت الصغيرة بسذاجة . اليس كذلك ؟ اولم تعطني هذه الحلوى مكافأة لي على حفظي هذا الدرس ؟

والآن ، وقد اكتسبت ثقة الصغيرة لم يعد الاستفسار منها بعد عن الشكل الذي اتبعه والدها في تلقينها وصف الغرفة ومحتوياتها الا الموبقة .

غير انه لما كان تقرير الطبيب لم يدع مجالاً للشك في انه قد انتهك عفاف البنت الصغيرة قلت لها : اذاً من الذي اغتصبك وعمل بك هذا الفعل ؟

فاجابت بلا تردد قائلة :

ان والدتي في مساء يوم خرجت لشراء بعض الحاجيات وبقيت في البيت وحدي جاء احد رفاق والدي وعمل بي ما نسبه الى المسيو ق . . . ولكنني لا اعرف اسم الفاعل .

وبعدئذ احضرنا الأب وكأننا لم نتكلم مع الصغيرة شيئاً وقال له المسيو كوللاس : انت رجل سافل ، قد اعترفت ابنتك بكل شيء . انك انت السبب

لقنها هذا الدرس والمسروق ... ليس بمجرم والمجرم هو احد رفاقه في المعمل .

فأجهش الرجل بالبكاء وقال : حقيقة ان المسروق ... بريء والذي انتهك عفة ابنتي هو رجل الحبكي من رفاقي حاول [illegible] الشفاء الى الآن ، ورأيت ان استفيد من هذه المصيبة واعوض هذه الخسارة الفادحة بقليل من المال فلم اجد خيراً من المسروق ... لقد اشتهر بين الناس بالغنى والثروة والحرص على مكانته ظناً مني انه يسترضيني بشيء من المال خوفاً من الفضيحة .

وهنا من ذا الذي يستطيع ان يصف لنا سرور المسروق ... عندما سمع اعتراف الوالد هذا . واني اعترف بأن قلمي الضعيف لعاجز عن ان يصف ذلك .

وقد طلب الينا ان نعفو عن العامل المسكين ولا نعاقبه على افترائه وكذبه اذ لا فائدة من ذلك وانه يشعر بعذاب النفس اذ لا تخلو متابعة النظر فيها مما يؤدي الى تسويد صحيفته البيضاء امام الناس .

والحقيقة انه لو حوكم العامل لتقول الناس في حق المسروق ... فمن قائل « لا دخان بلا نار » ومن قائل « من يثبت انه بريء حقيقة » وما اشبه ذلك .

هذا ورغم الالحاح على العامل بذكر اسم الفاعل الحقيقي فقد اصر العامل على عدم الاباحة باسمه

فلم يبق علينا الا ان نشيع المسروق ... الى الباب بما يستحقه من التجلة والاحترام .

انني قد انتفعت كثيراً من هذا الحادث الذي جاء انموذجاً مفيداً لما لشهادة الصغار من القيمة الحقيقية وقد اصبحت من ذلك الحين لا اثق بكلام صغير مهما ظهر عليه من امارات البساطة والسذاجة الا كما اثق بكلام شخص كبير ، لأن الصغار مقدرة على تمثيل ادوارهم تمثيلاً حقيقياً . والغالب ان ذلك ناشيء عن اعتقادهم بأنهم يحسنون صنعاً باطاعتهم والديهم مهما كان الفعل الذي يأمرونهم به .

الا ترى الصغار في المراسح كيف يكسبون اعجاب المتفرجين بالقائهم ادوارهم

الاتقان كله بدون مشقة ولا اعنات .

وكثيراً ما ارتكب القضاة الخطيئات التي تقشعر منها الابدان ، ويقف لها شعر الرؤوس باتكالهم على شهادة الاطفال واعتمادهم عليها . « تعريب الحقوق »

**

كيف سرقت

جاء في جريدة الماتان البارزية انه بينما كان شرطيان فرنسويان يتجولان في احدى اسواق باريز لمحا امرأة حسناء من المعروفات بالبراعة في نشل ما خف حمله وغلا ثمنه فتبعاها فركبت احدى مركبات الترامواي فلحقا بها ثم نزلت وركبت الاوتوبوس فواصلا مطاردتها الى ان ابصراها تدخل كنيسة نوتردام دي فكتوار فدخلا ايضاً في اثرها فشاهداها جاثية امام المذبح تصلي بخشوع وبعد دقائق نهضت وتناولت شمعة واضاءتها ثم وضعتها امام صورة العذراء وانصرفت ولما صارت في شارع ريشوليو الآهل بالمحال التجارية الكبيرة دخلت احدها والشرطيان يعقبانها ونشلت مظلة ونزعت عنها الورقة المرقوم عليها ثمنها ثم واصلت سيرها واختطفت رزمة من القفازات واسقطتها في المظلة وعندئذ دنا منها احد الشرطيين وقال لها جميل منك ياسيدتي ان تنشلي الحوانيت بالدربة ولكن احلى من ذلك ان تقدمي على السرقة بعد خروجك من الكنيسة فصاحت المرأة صيحة قوية عقبتها نوبة لم تصح منها الا في دائرة الشرطة . ولما سألها الضابط عن الباعث لها على الصلاة قبل اقدامها على عملها اجابت ان اضاءتها الشمع للعذراء عادة قديمة جرت عليها منذ ما اتخذت السرقة صناعة لها اذ تبين لها ان كل مرة اضاءت فيها شمعة قبل شروعها في السرقة كانت تفلت من ايدي الشرطة اما هذه المرة فلا تعلم سر فشلها .